الفصل الأول

نشأة الحرب الإيديولوجية وتطورها

obeikandl.com

obeikandl.com

نشأة الحرب الأيديولوجية وتطورها

يؤرخ لفيف من الكتاب للحرب النابليونية كبداية للحرب الأيديولوجية ، بينما يربطها آخرون بمولد الدبلوماسية المفتوحة بنهاية الحرب العالمية الأولى ، فى حين يرى لفيف ثالث أن الصراع الأيديولوجى الحقيقى لم يبدأ إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

على أنه من المهم أن نتبين الظروف السياسية والاجتماعية التى فى ظلها اكتسب الصراع الأيديولوجى أهميا فى الماضى والتى ما زالت تعكس آثارها على الحاضر .

ويمكن أن نميز هنا بين ثلاثة مواقف :

أولا – موقف الحرب : والمقصود بها الحرب العظمى التى يكتوى بنارها جانب كبير من شعوب العالم (محاربة والمتحالفة والمحايدة) .

ثانياً – موقف التمهيد للغزو : وهو الموقف التى يقتضى تكييف سلوك سكان دولة معينة قبل الإقدام على غزوها ؛ أو تمهيداً لهذا الغزو .

ثالثاً – موقف الثورة : ولا يقصد أى ثورة وإنما الثورة الناجحة التى تحدث فى دولة معينة وتنتشر إلى الدول الأخرى نتيجة بعض الظروف الاجتماعية المواتية مما يجبر حكام الدول الأخرى على البحث عن طريقة لخنق الثورة أو حصارها ويدفع فى الوقت نفسه الحكومة الثورية إلى محاولة التأثير فى مؤخرة العدو أو بمعنى آخر فى جبهته الداخلية بنشر الأفكار الثورية .

ويمثل الموقفان الأولان (موقف الحرب والغزو) النموذج المبكر لاستخدام الدعاية السياسية الخارجية وهو نموذج تعود أصوله التاريخية إلى الماضى السحيق ، ومن ذلك الدعوة إلى الوحدة الهلينية من جانب فيليب الثانى والإسكندر الأكبر

كمبرر لحروبها التوسعية . واستخدام الدين فى العصور الوسطى كسلاح فى السياسة الخارجية ، وتعتبر الحروب الصليبية (ق ١١ – ١٢) التى قامت بها مجموعات من إمارات أوربا الإقطاعية بمعاونة الكنيسة الكاثوليكية . أبرز مثال على ذلك .

فبالإضافة إلى إعطاء خلفية ايديولوجية للحروب فإن الحرب الأيديولوجية كانت تستخدم كتمهيد روحى لشعوب المناطق المراد غزوها توطئة لذلك الغزو ، كما كان يفعل المبشرون المسيحيون فى أفريقيا مثلا لتجنيد العملاء من بين السكان المحليين .

ويجب أن نذكر أن الاستعمار كان مصحوباً دائماً بمحاولة تحطيم الروابط الروحية القديمة لشعوب المستعمرات والقضاء على ميراثها الإيديولوجى والثقافى ، باعتبارهما المصادر الروحية الأصيلة للمقاومة .

وإذا كان الدين الإسلامى قد وقف قلعة صلدة فى وجه قضاء الاستعمار الفرنسى على الشخصية القومية الجزائرية فقد كان للمبشرين المسيحيين الغربيين على العكس من ذلك دوراً كبيراً فى التمهيد لاستعباد شعوب المستعمرات وخاصة فى أفريقيا السوداء فى عهد الإمبريالية .

أما بالنسبة للموقف الثالث الذى اكتسب الصراع الايديولوجى فى ظله أهمية كبرى – نقصد موقف الثورة – فما لا جدال فيه أن ثورات القرن الثامن عشر تعطى نموذجاً طيباً . فقد قامت تلك الثورات فى الوقت الذى تمت فيه نوع من الصلات بين دول العالم بحيث أصبح من شأن أى تغيير كبير فى إحدى الدول الكبرى أن يغير موازين القوى القائمة بما يتبع ذلك من نتائج بالنسبة للسياسة الخارجية الأمر الذى جعل أثر هذه الثورات يتجاوز حدود الوطن إلى المجتمع الدولى ، ذلك أن الثورة الناجحة التى تصنع نهاية للاستبداد فى بلد ما لا بد وأن تهدد بالخطر السلطات الحاكمة فى البلدان الأخرى بتعجيلها إنضاج العملية الثورية فيها . وهذا يفسر وحدة قوى العالم القديم ضد الثورة ، تلك الوحدة التى كانت تتمثل عادة فى صورة حروب معادية للثورة أو أعمال يقصد بها القضاء على الأفكار الثورية .

ومن ناحية أخرى فإن الطبقة الجديدة التى تأتى إلى السلطة كنتيجة للثورة لا يسعها أن تغفل عن واجبها فى نشر الأفكار الثورية فى البلدان الأخرى حماية لمؤخرتها .

فسعى الثورة الفرنسية ، ودعوتها لتحرير شعوب أوربا عن طريق الثورة ، المتمثل فى قرار الجمعية الوطنية فى ١٩ نوفمبر ١٧٩٢ الخاص بمساعدة جميع الشعوب التى ترنو إلى خلع الطغاة إنما يمثل أساس الدعاية الثورية على المستوى العالمى ويفصح عن الرغبة فى نشر مثل الحرية والديمقراطية وانتصارها فى العالم كله .

ولم يكن روبسبير كاذباً مع نفسه عندما أعلن أن فرنسا تحارب لتحرير العالم .

ومن الواضح أن الدعاية الثورية الدولية كانت مطلوبة لمصالح سياسية أساسية وحيوية بالنسبة للثورة تتمثل أساساً فى الدفاع عنها ضد العدو الخارجى ، فالثورة الفرنسية قد استطاعت عن طريق صيغ حربها الدفاعية بصبغة ثورية أن تملأ نفوس الجماهير الفرنسية بالحماس الثورى وأن تقهر العدو العسكرى الأكثر قوة ذلك أن كل فرد من أفراد الشعب آمن بأنه يخوض حرباً دفاعية عادلة وبالتالى حاربها بكل طاقته النفسية والعاطفية .

وليس من شك أن الطبيعة الثورية للحرب والسياسة الخارجية للثورة الفرنسية قد استطاعت أن تحدث فعلا تأثيرها الكبير على شعوب الأعداء وبذلك نجحت فى إضعاف قوى الدول المعادية .

وقد شهدت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أول نموذج من نوعه للاستخدام المنظم والمخطط للأساليب الأيديولوجية فى السياسة الخارجية ، وبالتالى تحويل الدعاية السياسية الخارجية إلى عنصر هام من عناصر نشاط الدولة .

ونقصد بذلك نابليون الذى كان مجدداً فى الدعاية وبخاصة الدعاية الخارجية . فلقد كان نابليون أول من استخدم الصحافة كوسيلة للزعامة

السياسية والعسكرية بل إن مصر قد عرفت الصحافة أول ما عرفها على يديه[١]

ولقد علق السياسى الكبير ميترنخ على ذلك قائلا : « إنه لشيء جديد فى التاريخ أن يتجه أحد الحكام مباشرة إلى الجماهير ، وهو ما فعله نابليون وأفاد منه فائدة عظمى » .

ولا شك أن استخدام نابليون الواسع والمتكرر للوسائل الايديولوجية فى الصراع لا يعود إلى مواهبه الخاصة بقدر رجوعه إلى الظروف الموضوعية التى جعلت من استخدام هذه الوسائل ضرورة .

فقد كانت مشكلة نابليون الأولى بعد توليه السلطة تبرير ودعم حكمه البلاد التى كانت خارجة من ثورة أسقطت الملكية ومبادئ الشرعية القديمة أمام مبدأ سيادة الأمة ، وفى ظل هذا الموقف كان من الضرورى لنابليون أن يحصل على موافقة وتأييد الرأى العام . وللوصول إلى ذلك كان لا بد له من العمل بصورة مستمرة على ما اصطلح على تسميته اليوم «بإدارة الرأى العام» عن طريق أجهزة الأعلام .

أما مشكلة نابليون الثانية فكانت تتمثل فى تحول الجيش من محترفين مستأجرين إلى جيش غفير مجند من أبناء الشعب . فمثل هذا الجيش لا بد له من دوافع غير دوافع السلب والنهب ذلك كان من الضرورى للمحافظة على روحه المعنوية وقدراته القتالية من الالتجاء إلى إذكاء المشاعر الوطنية والقومية بين أفراده .

ولما كان نابليون قد وصل إلى الحكم عقب ثورة عظمى فقد ساعدته ظروفه على جنى الثمار الايديولوجية لتلك الثورة رغم تعارضها مع حقيقة أهدافه ونواياه .

فلقد استقر فى أذهان الأمم الأخرى نتيجة لجهود رجال الثورة الأوائل أن فرنسا هى نموذج الحرية والإخاء والمساواة . وقد استطاع نابليون أن يدرك بذكاء أهمية هذه المثل العليا وقوتها وأن يستخدمها لتحقيق مصالحه الذاتية ضد أعدائه من

---

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية – القاهرة ١٩٤٥

الملوك المستبدين ، وكان هذا هو السبب فى إقدامه على ترويج أعمال الكتاب الثوريين فى البلدان الأخرى ؛ رغم تحريمها فى فرنسا ذاتها ، وذلك لكى يموه على خططه لنهب الدول الأخرى تحت شعارات تحريرية مثل شعار تحرير العبيد . . . إلخ ، أى أنه كان ينتهز كل فرصة للاستفادة ايديولوجياً من الثورة التى خانها هو نفسه .

وقد حفزت حروب نابليون ملوك أوربا لكى يدخلوا فى صراع ضد الأفكار الثورية . وهكذا ولد الحلف المقدس الذى كان يستهدف على حد قولهم « العمل ضد الأفكار المخادعة فى البلدان الأخرى » ؛ ولعل هذه كانت أول منظمة دولية تنشأ لمثل هذا السبب .

وإذا طبقنا الكلام السابق على عالمنا المعاصر لوجدنا تشابهاً كبيراً :

فالثورة البلشفية التى حاولت دول العالم الرأسمالى خنقها فى مهدها قد استطاعت أن تفلت من هذا الخناق بفضل نجاحها فى تأجيج روح المقاومة بين جماهير شعوب روسيا ضد العدو الأجنبى الدخيل ، بل لقد استطاعت أن تنقل المعركة عن طريق نشر الأفكار الثورية إلى قلب العالم الرأسمالى نفسه .

وثورة ٢٣ يوليو فى مصر حين مدت أفكارها عن الحرية والوحدة والاشتراكية إنما كانت فى حقيقة الأمر تعمل أساساً على توسيع نطاق المقاومة الشعبية على الصعيد العربى كله ضد التدخل الاحتكارى العسكرى الأجنبى ومؤامرات الرجعية .

والاحتكارات الرأسمالية العالمية حين تعمل اليوم على نشر التراث الثقافى والروحى الليبرالى بين شعوب العالم الثالث . ذلك التراث الذى تنكرت هى نفسها له فى بلادها إلى حد كبير ، إنما تكرر فى عالمنا المعاصر لعبة نابليون الأيديولوجية .

الحرب العالمية الأولى ونشأة الدعاية السياسية الخارجية :

يؤرخ للحرب العالمية الأولى عاده كحجر الأساس فى تشكيل الدعاية السياسية الخارجية ، فقد شهدت تلك الحروب لأول مرة فى التاريخ ظهور

الوكالات الحكومية المتخصصة فى الدعاية السياسية الأجنبية مثل وزارة الاستعلامات البريطانية برياسة لورد بيفر بروك وإدارة دعاية الأعداء برياسة لورد نورثكليف واللجنة الأمريكية للإعلام واللجنة الدولية للحلفاء التى كانت تشرف على تنسيق دعايتهم ، وإدارة الصحافة الحربية الألمانية التى كانت تتبع القيادة العامة الألمانية ووزير الخارجية ، هذه الإدارات الحكومية تمثل بهذا الشكل الحديث للاستخدام المنظم للدعاية السياسية الخارجية من جانب الحكومات كسلاح من أسلحة الدبلوماسية بجانب الأسلحة التقليدية الأخرى .

وليس من شك أن من أبرز العوامل التى أدت إلى دعم سلاح الدعاية السياسية الخارجية تحول الرأسمالية إلى الإمبريالية مما دعاها إلى مضاعفة الاهتمام بالتوجيه الروحى للشعوب بحيث يصبح هذا السلاح أحد الأسلحة السياسية بجانب الضغط المادى المتمثل فى الحروب الفعلية، يدل على ذلك الحجم الذى لم يسبق له نظير للدعاية المنظمة التى استخدمت كوسائل لها : الصحافة ، والمدرسة ، والكنيسة ، وغيرها من المؤسسات .

ففى هذه الحقبة تنكرت الرأسمالية للديمقراطية الليبرالية ودخلت فى صراع لا هوادة فيه للسيطرة الكاملة على أسلوب الناس فى التفكير أو على ما يسمى « بالرأى العام » حتى يمكنها توجيه هذا الرأى العام الوجهة التى لا تتعارض مع مصالحها الأساسية .

وتبعاً لذلك وضعت اسس النظرية الإمبريالية فى الدعاية أو علم إدارة الناس الذى وصل إلى قمة نموه وتطوره فى عصرنا الحديث على أيدى علماء النفس والاجتماع[1]

ومن نافلة القول التنبيه إلى أن أحد الأهداف الرئيسية لهذا النشاط الدعائى هو خدمة السياسة الخارجية العدوانية . فالاستعمار يرتبط كما نعلم ارتباطاً وثيقاً بالحروب ، أى بالصراع من أجل تقسيم العالم وإعادة تقسيمه وهكذا .. إلى آخر هذه الدائرة الخبيثة .

---

(١) مختار التهامى : الرأى العام والحرب النفسية — الجزء الأول — دار المعارف

ومن الأمور الطبيعية أن تسعى الدولة الاستعمارية لتهيئة المقومات الأيديولوجية اللازمة لتبرير سياستها ، وينعكس ذلك بصورة واضحة على الدعاية الداخلية التى تدافع عن مبدأ السياسة العدوانية الخارجية والتى تسعى إلى بذر بذور الحقد وعدم الثقة بين الشعوب ، والتى تبرر الحرب والتوسع وتدعو إلى سيادة الروح العسكرية .

ولا شك أن الحرب العالمية الأولى كانت حافزاً للإمراع فى هذه العمليات كما أنها خلقت الظروف التى أصبح من الممكن معها أن تتحول الخطط الاستعمارية التى رسمت فى وقت السلام إلى واقع ملموس .

ولقد أثبت الصراع العسكرى الأهمية الكبرى لكسب تأييد الشعوب للسياسة الاستعمارية . وفى شرح هذا يقول « جون مارتن » عن الحرب العالمية الأولى : « لقد اكتشف عندئذ أن الحرب الشاملة لا يمكن خوضها إلا بالهجوم على عقول البشر وأجسادهم فى الوقت نفسه[1] » .

ويختلف رجال الدعاية فى تقدير مدى تأثير الدعاية التى استخدمت على نطاق واسع ضد القوات المسلحة والشعوب الأخرى خلال الحرب العالمية الأولى ، فيرى بعضهم أن القول بأن الدعاية البريطانية هى التى كسبت الحرب ضد ألمانيا قول أوحى به العسكريون الألمان أنفسهم لادعاء أن الجيش الألمانى لم يقهر فى المعركة إنما خانه حلفاؤه وهجروه ، وأن هذا بالإضافة إلى الدعاية كان سبب الهزيمة .

ولقد حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أن حلت جميع أجهزة الدعاية التى خدمت تلك الحروب ، وخيل للناظرين أن كل شىء قد عاد إلى أساليبه القديمة ، ولكن هذا لم يستمر سوى لفترة قصيرة من الزمن . فالحقيقة أن حرب الأفكار فى العلاقات الدولية استمرت — بل تضاعفت — على جبهات عديدة تبرز فى مقدمتها جبهة الصراع بين الاشتراكية والإمبريالية بعد ظهور الدولة الاشتراكية الأولى ، والصراع بين الدول الإمبريالية نفسها . وأخيراً الصراع بين الاستعمار وشعوب المستعمرات .

---

(١) Martin, John : International Propaganda Minapolis 1958-p.6.

ومع تطور أجهزة الاتصال الحديثة . أخذت إدارات الدعاية السياسية الحكومية طريقها مرة أخرى للظهور حتى فى زمن السلم . ففى عام ١٩٢٧ بدأت الأراضى الوطيئة توجيه إذاعات على الموجة القصيرة لمستعمراتها ، وتبعتها فرنسا عام ١٩٣١ والإذاعة البريطانية إلى ما وراء البحار عام ١٩٣٢ ، وألمانيا النازية عام ١٩٣٣ وإيطاليا الفاشية عام ١٩٣٥ والولايات المتحدة عام ١٩٣٩ .

ولابد من التنبيه إلى أن النازية قد أقامت جهازاً للدعاية الشاملة لم يسبق له نظير فى تاريخ العالم من قبل قدرت نفقاته بما يزيد على ٥٠٠ مليون دولار[١]

الدعاية خلال الحرب العالمية الثانية :

وبقيام الحرب العالمية الثانية ازدهرت إدارات الدعاية السياسية الأجنبية فى بلدان كثيرة . ففى بريطانيا أنشئت وزارة للإعلام ولجنة للدعاية السيكولوجية ، وفى الولايات المتحدة تأسست إدارة الاستعلامات الخارجية ومكتب الاستعلامات الحربى الأمريكى كما استخدمت القيادات العسكرية الدعاية على نطاق واسع فى ميادين القتال نفسها وبين شعوب الأراضى المحتلة .

ولا شك أن سنوات الحرب العالمية الثانية قد شهدت نمواً وتضخماً فى الدعاية بشكلها الحديث وتطوراً بعيد المدى فى نظرية الدعاية وتكنيكاتها وأساليبها ووسائلها ظهرت آثاره بصورة أكبر فى الحرب الباردة التى أعقبتها .

اشتعال الحرب الأيديولوجية بانتهاء الحرب العالمية الثانية :

وعلى خلاف ماحدث بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن أجهزة الدعاية التابعة للدول المنتصرة لم تتوقف إلا لفترة قصيرة جداً ، لا من أجل حلها بل لإعادة تنظيمها . فبعد عامين أو ثلاثة من انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى . وكان سلاحها الأول هو الدعاية

---

(١) Harrison, J. B. & Others : (edited.by) : "If men Want Peace" New York 1947 - P. 218.

السياسية الخارجية . وهكذا انتقلت الدعاية السياسية الخارجية من كونها نشاطاً مصاحباً للحروب وحالات الطوارئ إلى نشاط قانوني له صفة الدوام والاستمرار .

ولقد وصل الصراع الإيديولوجي الآن إلى درجة وحجم في العمليات السياسية الخارجية للدولة المعاصرة أدت إلى تغيير نوعي خطير في العلاقات الدولية يطلق عليه البعض اصطلاح « مذهبه » هذه العلاقات[١] .

وقد أشار إلى ذلك مؤلفو كتاب « غزاة الأفكار » حيث يقولون :

« إن العلاقات الدولية قد تغيرت تغيراً جذرياً خلال الأربعين عاماً الماضية فاق كل تغير حدث خلال القرون السابقة ، فلأول مرة في تاريخ العالم لا ترجد الآن حكومة واحدة تستطيع أن تستغني عن عملية التحريض الجماهيرية[٢] .

ويتردد مثل هذا القول حتى في التقارير الرسمية ، فقد جاء في التقرير الذي قدمته لجنة مانسفيلد الخاصة بالنشاط الإعلامي الخارجي إلى الرئيس الأمريكي إيزنهاور ما يلي : أننا الآن في فترة تغير فيها الدبلوماسية سياستها وأساوبها فمن المعترف به اليوم أنه ما لم تستطع الحكومات أن توصل بصورة فعالة ومقنعة مبررات سياستها وأعمالها إلى جميع العناصر المؤثرة سياسياً في الشعوب الأجنبية فإن من الممكن أن تتعرقل برامجها ويتعرض أمنها للخطر[٣] .

وفي المعنى نفسه تكلم « وليام بنتون » الوكيل السابق المساعد للخارجية الأمريكية عن المرحلة الجديدة لتطور العلاقات الدبلوماسية فقال : « كانت القوة ، والقوة العسكرية دائماً تقبع في خلفية معظم المباحثات في الدبلوماسية القديمة ، وكثيراً ما كانت تقترب جداً من السطح ، أما في السنوات الأخيرة فقد أخذت الاعتبارات الاقتصادية تلعب دوراً متزايداً ، أما اليوم فإن دبلوماسية الرأي العام هي التي تلعب الدور المسيطر وهذا أمر ظاهر ملموس للعيان » .

ويواصل « بنتون » حديثه عن هذا النوع الجديد من العلاقات الدولية الذي

---

(١) أي صبغها بصابغ مذهبي أو فكري .

(٢) Gordon, G. N., Falk, I. Hodapp, W. : "The Idea Invaders" New York, 1963-p. 187.

(٣) The Dept. Of State Bulletin, Feb. 6, 1961- P. 185-86.

أعطى مولداً لدبلوماسية جديدة شاملة هدفها الأول كسب عقول الناس وولائهم فيقول : « وهذه الدبلوماسية كى تكون شاملة يجب أن تستوعب أساساً الجهود السيكولوجية التى تستهدف شعوباً بأكملها والوسائل العلمية اللازمة لخوض هذه الدبلوماسية السيكولوجية »[1] .

وهكذا ترقى العمليات السيكولوجية اليوم إلى مستوى الدبلوماسية التقليدية بأجهزتها العسكرية والاقتصادية .

ويفسر تقرير لجنة مانسفيلد السابق الإشارة إليه سبب هذا التطور فيقول : « إن هذه التغيرات إنما تعكس التطور التكنولوجى لأساليب المواصلات والاتصال والدور المتزايد للرأى العام فى الشئون العالمية » ويستطرد قائلا : « إن التزايد المطرد فى قوة الرأى العام ظاهرة واضحة فى جميع أنحاء العالم وهذه القوة المتزايدة يفسرها ازدياد التعليم وإدخال أدوات اتصال جديدة واسعة النطاق وانتشار الأفكار الديمقراطية » .

وبعد هذا العرض لنشأة الدعاية الإيديولوجية وتطورات استخداماتها فى مجال الدبلوماسية الدولية الحديثة كسلاح فى التأثير على الرأى العام ننتقل فى الفصول التالية إلى دراسة للأسس الفلسفية التى تقوم عليها كل من الدعاية الأمريكية والسوفيتية حيث تتمثل قمة الصراع بين النظامين الاجتماعيين المعاصرين كما نعرض أيضاً — استكمالا للبحث — للدعاية فى الصراع السوفيتى — الصينى ، ولأسس الدعاية الصهيونية الإسرائيلية ، ثم ننتهى بفصل ختامى عن موقف المدرسة الاشتراكية العربية من الصراع الدعائى الايديولوجى الأساسى الذى يشهده عالمنا المعاصر .